٥ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفّه الطربُ لذكر صواحبه وجيلاته من قاطنة الى رَبّاب ؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذَبَ صدّق نفسَه ، فان قوةَ الضبط فى عقله إما معدومةٌ وإما مختلّة ، وكلُّ وجهٍ تَخَيَّل منه خيالا فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده إذ كان عالَمُه أكثرهُ فى داخله لا فى العالَم ، فاذا توهم أو أحسّ أوشَعَر فانما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء ، فليس يحتمل عقلُه إلا فكرةً واحدةً تمضى منفردةً بنفسها مستقلةً بمعناها كأنها قَدَرٌ غالب على جميع أفكاره الأخرى ، فلا شأن لها بالواقع ولا شأن للواقع بها ، وإنما هى تحقق معناها كما تخطرُ له لا كما تتمثّل فيما حوله . فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغُه المُتَدَجّى بالغيوم العقلية ، لا تزال تمرِضُ له القيمةُ بعد القيمة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه ، وفسادِ أعمالها بهذا الاختلال ، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد .

ومن ذلك تنقلب الكلمةُ من الكلام وإنها لحادثةٌ تامةٌ فى عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمانٌ ومكانٌ وبدءٌ ونهاية ، لا يخامره فيها الشك ، ولا يعتريها التكذيب ؛ وكيف وهى قائمة فى ذهنه من وراء سمعه وبصره قيامَ الحقيقة فى الأبصار والأسماع ؟

ولحواس المجنون جهتان فى العمل لأنها بين كونين أحدهما الكونُ الخَرِبُ الذى فى دماغه ؛ وفى هذا يقول (نابغة القرن العشرين) : إن فى داخل عينيه منظارا يرى به الأشياءَ فى غير حقائقها ، أى فى حقائقها

وحدثنا الدكتور محمد الرافعى قال : إن فى دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة كنابغة القرن العشرين ذُكرت أمامه قيصرة روسيا وخَبَرُ مقتلها ، فأحفظَهُ هذا وأرْمَضَه وقال يا رحمهم ! كذبوا عليها وعلىّ . . . فسأله الدكتور : وكيف ذلك ؟

قال : كان من خبر القيصرة أنها رأتنى فأحبتنى وعلمتْ من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبُها أنى أنا رجلُها لا القيصر . فازالت بعدها تُناكِدُ القيصر وتَلْتَوِى عليه ولا تصالح له فى شىء حتى يئس منها فطلقها . فحملت كنوزَها وحلاها ولجأت الى حبيبها . ثم تبعتها نفسُ القيصر ولم يُطق العيش بعدها فانتحر . . . . ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز فأخفاها هو فى مكان حريز لا يعلمه إلا هو ؛ ثم إنه هو لا يصل الى هذا المكان الذى أحرزها فيه إلا إذا نام . . . كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبَه فيعلم مقرها . ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ . . . فقد يزلُّ مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على عقله . . . فيذهب اليه فعسى أن يراه من يَنمُّ بذلك فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه ، قال : وإن القيصرة هى تحتاط أيضاً مثل ذلك فتراسله كل يوم باللاسلكى رسائلَ تقع من الجو فى دماغه فيقرؤها وحده . وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة فتزوره فى هذا المارستان ..... فقد تُقتل إذا رآها الشيوعيون

قال الدكتور : وهناك (نابغة) آخر ثبت فى ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامتْ به وأنها مُبتَلاةٌ فى حبها إياه بجنون الغيرة ، وقد تناهتْ فيه حتى إنها لتقتل نفسَها إذا علمت أن لصاحبها هوى فى امرأة أخرى . وخبّلته هذه الفكرة فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف ؛ ثم توهم ذاتَ يوم أن واشياً قد أعلمها أن النساءَ افتتنّ به ؛ فطار صوابها فهى آتيةٌ إليه فى المارستان لتوبخَه وتشفى غيظَها منه ثم تنتحر أمام عينيه . وأدار (النابغة) الفكر فى إقناعها لتعلمَ أنه لم يَخُنها بالغيب . . . . فلم يهتد إلى مَقْنَع تَسْتَيْقِنُ به المرأةُ أن لا أرَبَ للنساء فيه إلا أنْ . . . . ففعل وَجَبَّ خصيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنه لها وحدها . . . :

* * *

قلنا : وطرب نابغة القرن العشرين ، لذكر صواحبه وجيلاته فجعل يترنم بهذا الشعر :

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم
ما لذةُ العيش إلا للمجـــانين

فقال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : ما لذة « الخبز » إلا للمجانين . . . .

فضحك (النابغة) وقال : ما أسخفك من أحمق . إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكمك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو نَهَجَنَا كلمة خبز لقال إنها ل . ح . م . ولو نهجا كلمة لحم لقال ف . و . ل . . . .

إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه داعًا غضبُ الطفل ونزقه وحماقته ، وفيه كذلك سرورُ الطفل وطيشه وأحلامُه ؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل . وهو من الضعف وشدة الحاجة إلى العناية في حياطته وسياسته والسيرِ به كطفل صغير — بحيث يخيَّل إليّ أحيانًا أنني أمُّه . . . . . .

قلنا : وتنسى في هذه الحالة أنك رجل ؟

قال : وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان وهو شرعًا جهةٌ ملزمة للحكم بالجنون . فما النسيانُ إلا الكلمةُ الأخرى لمعنى ضعف العقل ؛ وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنوني ؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام .

قلت : لا ، إن النسيان لا يكون منك نسيانًا بمعناه في المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من تواثب الأفكار النابغة وتزاحمها في توارُدِها على العقل . فإذا تواثبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن يُنسِيَ بعضها بعضا فلا ينطلق منها إلا القويُّ النابغ حقَّ نبوغه ، فيجيء كالمنقطع مما قبله ، فيحسب ذلك نسيانًا وما هو به . وقد تصطلح الافكارُ في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسرورًا محبورًا يرقص طربًا . . . . فيكون أمرُها إلى أن تجيء كلها معًا على اختلاف معانيها وتناقضها ؛ فيُحسب ذلك غيرًا من الذهول عند من يجهل العلةَ النبوغية ؛ وعذرُه جهلُ هذه العلة وهي في دلالة العقل ليست نسيانًا ولا ذهولاً

قال : فأعلمني كيف نسيان المجانين فقد خفي عليّ أن أدرك هذا الأمر العجيبَ فيهم ، ولستُ أدري كيف يقومُ فهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيان تُهمةً بالجنون إلا في أحوال ثلاث جاءت بكلها الروايةُ الصحيحة المحفوظة :

فأما الأولى فما يُروَى عن رجل كان سريًّا غنيًا وعُمِّر حتى أدركه الخرَف ؛ فجاءه كاتبه يومًا يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت فدفع إلى غلام له دنانير يشترى بها كفنًا ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر ؛ ثم قال لغلام آخر : إمض إلى صاحبنا وغاسل موتانا فلان فادْعُهُ يغسلها . قال الكاتب : فاستحييتُ منه وقلت ياسيدي ابعث خلف فلانة وهي جارة لنا تغسلها . قال يافلان ما تدع عقلك في حزن ولا فرح . كيف ندخل عليها من لا تعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذَنُ بذلك . قال لا والله ما يغسلها إلا فلان

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال : ياسيدي كيف يغسل رجلٌ امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة . . ؟ والله لقد أنسيت

وأما الحالة الثانية فما يُروى عن رجل كان نائمًا في ليلة باردة فخرجت يدهُ من الفراش فبردت ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسَّ بردَها فأيقظته ، فانتبه فزعًا فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضتُ عليه أدركوني لئلا تكون في يده حديدة يضربني بها ، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضًا بيده على يده وقد نسي أنها يدُه . . .

وأما الثالثة فهي رواية عن رجل قد ورث نصفَ دار ، ففكر طويلا كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى الى الوسيلة ؛ فذهب الى رجل وقال له : أريد أن أبيعك حصتي من الدار وأشترى بثمنها النصف الباقي لتصير الدار كلها لي . . .

* * *

قال (النابغة) لعمري إن هذا لهو الجنون ، وما يذكر مع هؤلاء مجنون المتن ولا غيره . . .

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يدفع نفسه عن الجنون لجاء في الجنون بما يُذهِلُ العقول . . .

ثم نظر فإذا النابغة يتحفز له . . . ؛ فأسرع يقول : « مما حفظناه » كُنْ حَذِرًا كأنك غِرٌّ ، وكن ذاكرا كأنك ناس . فهذا هو نسيان نابغة القرن العشرين ، نسيانُ حكماء لا نسيانُ مجانين

قال (النابغة) ولكن قد فسد قول الشاعر ، ما لذة العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيت مع الجنون لذة

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض وإنما يريد العشاق المجانين بالجمال ؛ وجنون العاشق في هذا الباب

كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهى عيوب تدافع عن نفسها بحسنات العظمة فليست كغيرها من العيوب

قال : فيجب أن أصنع بيتاً آخر يفسّر ذلك الشعر ليستقيم لى التمثل به . ثم فكّر وهمهم ، ثم كتب فى ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأتثمن س . ع . على شعرى ودفع إليه الورقة

فنظرت وقلتُ : يجب أن يكون الشعر هكذا :

قالوا جُننت بمن تهوى فقلتُ لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
العقلُ إن حَكَمَ العُشّاق أثقلُ من
فقرٍ تحكّم فى رزقِ المجانين

ونشر س . ع . الورقة فاذا فيها :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
إن العيوب عن المجنون دافعةٌ
بأنه نابغ فى القرن عشرين ...

وضحكنا جميعاً ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من من الثمن المجنون على سرّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره

* * *

ثم قال : وددتُ والله أن يكون س . ع هذا نابغة ، ولكنى سأجعله نابغة ، فقد صارلى عليّ حقُّ الصديق وهو حق لا أضيّعه ولا أخِلُّ به . فاذا احتجت يا س . ع إلى خطاب رنان تلقيه فى حفل عظيم ، أو قصيدة تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إلىّ فانى ملجأ لك . ومتى انتحلت شعرى كنت عند الناس المتنبى أو البحترى أو ابن الرومى ، فان هؤلاء القدامى لم ينفعهم إلا أنى لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أنى لم أكن فيهم

قلنا فما حكمك عليهم فى الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلت نفسى بينهم ، فمن الطبيعى ألا يعجبنى منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنى هذا أحسن فانه هو فوق الأحسن ، ولا يقول « نابغة هذا الشهر فانه هو فوق الأشهر

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذى لا يقول فى حُسن هذا أحسنُ لأنه فوق الشهوة ، ولا فى نعيم هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع ، ولا فى مال هذا أكثرُ لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لكنت الحقيق فى عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال فى نفسه : يارب . مَن زوجتى فى الجنة ؟ فأُرِىَ فى منامه ثلاث ليال أنها جارية سوداء فى أرض كذا . فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية ، فقال له رجل ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لى فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهار فاذا أعطيناها فطورها تصدقت به ، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها

قال : فأين هى ؟ قال ترعى غنماً للقوم فى الصحراء

فذهب إلى الصحراء فاذا هى قائمة فى صلاتها ، ونظر إلى الغنم فاذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه بُشّر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب

قلت : وأى عجيب فى هذا ؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والثعبان والعصفور ، وكل آكل وما كول من الأحياء ، لو هى دخلت فى دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد . فهذه الجارية نشرت رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالايمان ، فوقع الذئب منها فى دائرة مغناطيسية ، فسُلِبَ وحشيته ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيه الحياةُ بما حولها ، وانسجم النوعُ والنوعُ فى حركة متجاوبة انسجامَ الرجل المغناطيسى هو ومن ينوّمه فى إرادة واحدة وفكرة واحدة

قال (النابغة) : فاذا دخل الذئب مسجداً يَرْتَجُّ بالمصلّين ، أتُراه يَصُفُّ أربعتَه ويقف بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاته الذئبية فى لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة فيخرجون بها

من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مُسبِّبها ، ومما فى القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طولُ الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكرُه بما يغلب عليه كما يتصل فكر القص بيده ، وفكر العاشق بعينه ، وفكر الطفل بمعدته . . . فاسمها عندهم الصلاة وحقيقتها عند الله كما ترى

قال (النابغة) ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : «مما حفظناه» رتع الذئب فى الغنم ، ولم يقولوا صلى الذئب فى الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيدكما عدماً فهم ... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شىء من طباعها الانسانية ولا ظلّ من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذى لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهى ولا يطمع فى شىء ولا يحرز شيئاً ، وإنما طبيعته أشواقه الكونية واتصالُه بنفحات القوة الأزلية المسخّرة للوجود كله . فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتجّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة فاذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلّى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوة آمرة أمرها بائتلاف كل شىء مع كل شىء ، واجتماع المتنافرين فى حالة معرفة لا فى حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظاً ، ولكنه فى روح النوم ، وشُلّت فيه الذئبيةُ الطبيعية فاذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أُنسِيَ استعمالها ، وبقيت حركتُه الحيوانيةُ ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها

ومن كل ذلك اختفى الذئب الذى هو فى الذئب ، وبقى الحيوان حيّاً ككل الأحياء ، فناسب الشاة وفزع اليها إذ لم تعد العلاقة بينهما علاقةَ جسم الآكل بجسم الأكيلة ، بل علاقة الروح الحى بروح حى مثله [1]

* * *

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم . أكتب يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكن ، وبدون كتب ألبتة ... وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفّر على الاملاء بكل مواهبه العقلية ؛ ولما أن فكر النابغة وأعطى النظر حقه وجمع فى عقله الفذّ جزالةَ الرأى إلى قوة التفنن والابتكار ، قال مرتجلا : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطحه ، هى بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين ...

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة

فامتعض الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت تفطويه أو سيبويه لما كنت عندى إلا مَجشوّيه أو بَفلوّيه . . .

لقد كنت أرى الكلام فى تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلا حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه ، واندفعت فى سوائه (تمثيلاتُ) الأفكار خاطفة كالبرق . فلما تكلمت أنت انتهينا من سخافتك إلى طريق حجرى تقمقع فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردت والله مساءتك ولو أردتها لقلت وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح

قال النابغة : ولكنه تفسير مُفرط السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إنى مجنون

قلت : كلا ، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه

---

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم انجليزى كان قد اقتنص ذئبا هنغاريا وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيا . وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص إلى الليل ، فلما استثقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؟ ولكن الطفل لم يدرك شيئا من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك . ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيديه الصغيرتين ويحبثه ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس اليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى . وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائما ورأسه على الذئب . وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فتناوله وقام الطفل يبكى على صديقه الوفى ...

هذا هو أثر الروح للطبيعة الماشية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وان هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس